

المشرق في أدب الرحالة الفرنسيين

بين حربَي ١٩١٤ و ١٩٣٩

د. جان جَبُور

مع مطلع هذا القرن، أصبح أدب الرحلة أدباً مغموراً، وقد تساءل الكثير من النقاد إذا كان هذا النوع الأدبي لا يزال يتمتع بمقومات الحياة. فالتغريب الذي كان يوحيه أدب الرحلة أصبح مفقوداً، ولم يعد الرحالة سوى واحد من ملايين السائحين الذين يقصدون المناطق البعيدة بقصد الترفيه. فتطوّر المواصلات وسرعتها قريباً المسافات بين المدن البعيدة، وأكثرنا من تحالط الناس. فأصبح السكان في أية بقعة من العالم يقلّدون الأوروبي والأميركي. لذا، انحط قدر العادات الفولكلورية وطفّت الحداثة. ونظراً للمكننة والصناعة التي اجتاحت العالم فقدت الطبيعة سحرها، لتحل مكانها المعامل والمصانع والبنائيات الشاهقة وفقاً لحاجات البلاد. فأصبح العالم متشابهاً إلى حد ما، بفضل سرعة المواصلات ووسائل الإعلام التي تنقل الخبر بصورة أكثر وضوحاً وأكثر دقة وسرعة من الرحالة. من هنا، فإن المبالغة والغرابة التي كان يلجأ إليها الرحالة لدغدغة أحلام أقرانه القابعين في منازلهم لم تعد مقبولة وجديّة. فالتكلم على أدب الرحلة إلى الشرق في مطلع هذا القرن مهمة محفوفة بالمشاكل، إذ إن الشرق الذي بقي مسرحاً للخيال طيلة أجيال أصبح فجأة تحت الانتداب الأوروبي، وأصبح مصدراً لمشاكل ومتاعب كثيرة هزّت مشاعر الأوروبيين.

ولا بد، قبل الكلام على مرحلة ما بين الحربين، من عودة سريعة إلى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع هذا القرن، حيث قام مجموعة من الرحالة الفرنسيين بمحاولة تهديم وتهشيم وتشويه لصورة الشرق التي تركها الرحالة في القرون السابقة. فبنظرهم كل ما قيل عن الشرق هو أوهام أو سراب. وهذه الحملة، تعود جذورها إلى عام (١٨٥١) حيث نقرأ في كتاب كزافييه مارميه «رحالة جدد»: «لقد كُتِب الكثير عن الشرق إلى درجة أن أيّ متحمّس للعودة إلى هذا الموضوع سيّتهم بالشجاعة الرعناء وستواجهه الأسئلة المحرجة: ما بالكم تعودون للكتابة عن هذه المناطق التي اجتازها الرحالة في كل اتجاه، ووصفت بدقة متناهية من كل وجوها! هل بقي

هناك مشهد عن العادات الشرقية لم يُوصف بعد ، أو عمود لم يُقَس ، أو لوحة أثرية لم تُشرح ؟ أما شعبنا من تأمل روائع البوسفور وآثار سورية ونخيل النيل ؟ ألم ندخل في أقبية الأهرام المظلمة التي تدب فينا قشعريرة الموت ؟ ألم نصل حتى إلى مداخل المقصورات التي يحرسها الخصيان ؟ هل من الممكن أن تفيدونا بشيء جديد ؟ ألسنا نعرف الشرق عن ظهر قلب ؟^(١) .

إنما هذا التيار المعارض لأدب الرحلة في الشرق أخذ بعداً جديداً ، ابتداء من عام (١٨٨٠) ، حيث قامت مجموعة من الرحالة بإصدار كتب عدة تبرز وجه الشرق السيء ؛ من بين هؤلاء نذكر : أدمون أبو^(٢) ، مكسيم غوفروي^(٣) ، جورج مونتيبار^(٤) . . . وغيرهم .

وقد بلغ هذا التيار ذروته في مطلع القرن الحالي ، حين قام لويس بوتوان برحلة إلى الشرق كانت ثمرتها كتاباً هجائياً أسماه « السراب الشرقي » ، وأصدره عام (١٩١٠) . فالشرق بنظره ليس سوى مزبلة ؛ ولم يلاحظ أثناء رحلته سوى الأوساخ والتعفن . وبدل المشاهد المثيرة للخيال ، ينقل مشاهد مثيرة للقرف : « في القرن ، شاهدت ولداً ينام عرباناً على الخبز ، بينما الذباب يتأكل وجهه ويلتصق على حنايا جفونه الوسخة . ثم رأيت حماراً أرعناً يسرق رغيفاً كان يشكل وسادة للولد ، ويفر بعدها على وجه السرعة »^(٥) .

فالشعب الشرقي بنظره ليس سوى ترسبات الأوساخ الانسانية ، أو قطعاً من الناس يشكو من سوء التغذية وسوء المسكن ، ولا يميّزه إلا القليل عن قطعان الحمير والكلاب التي تجاوره .

وفي غمرة نشوته ، ينسى برتران الموضوعية التي يجب أن يتحلّى بها أدب الرحلة ، فلا يستطيع كبت مشاهره العدائية ، لذا ينتقل إلى الهجاء المباشر للشرق : « الشرق ؟ إنكم لا تعلمون حقيقته ! إنه القذارة والسرقة والانحطاط والاحتياال والقساوة والتعصّب والحقاقة ! نعم ، إني أكره الشرق ! إني أكره الشرقيين ؛ أكره أولئك المعتمرين بالطرابيش والمتلهّين بالسبحات »^(٦) .

إضافة إلى هذه الحملة المفرضة ، واجه أدب الرحلة بعد الحرب العالمية الأولى صعوبات ومشاكل كثيرة أفقدته الكثير من مقوماته . فالرحلة لم تعد حدثاً مهماً ، والمخاطر والإزعاجات التي كان يتكلّم عنها الرحالة القدماء لم يعد لها وجود . فقد حلّت محلّها سهولة الذهاب في الوقت المحدّد وإلى المكان المحدّد . لهذا السبب ، ورغم تكاثر كتب الرحلات لم يعد لهذا الأدب النكهة الخاصة التي تحلّى بها في القرون السابقة . ويبدو أن العجائب والغرائب التي كان يصوّرها الرحالة عن الشرق قد ولّت إلى الأبد . فأهم عامل ساهم في تهديم هذا النوع الأدبي هو السرعة . وعامل السرعة كان مبعث فرح لبعض الرحالة ، بينما رأى البعض الآخر أنه حامل سلب . فهنري بوردو مثلاً في كتابه « في جبل الدروز » يهلّل للسرعة ، معتبراً إياها إنجاز العصر . ففي رحلته

يصف المشاهد من الطائرة، حيث القرى تبدو كأنها بقع قاتمة، إذ تنتسّق المشاهد من الجو، وما هو بدون أهمية يخفي. وهكذا في ثلاث ساعات فقط، تمكّن من زيارة لبنان والجلولان وجبل الدروز وقسم كبير من سورية. فالطائرة التي حطمت المسافات بنظره قد جلت فن المشاهدة^(٧). وحين كتب سيرة حياته تكلم مجدّداً عن رحلته إلى الشرق مهللاً للسرعة: « هذه هي الرحلة الحديثة: نذهب بسرعة، نستعجل ونقفز ونقتحم. فبدل أن يدهمنا النعاس تحت الشمس ونحن نمتطي ظهر دابة بطيئة، وبدل أن تُثار أعصابنا وتهلك حواسنا، نُلقّي على المناظر والمآزين نظرة الفاتحين، فننتزع الأشكال ونسجلها في ذهننا كصور فوتوغرافية »^(٨).

إنما بعض الرحالة الآخرين لا يشاركون بورردو رأيه. فمثلاً رينه فانلاند^(٩) وبول نوريسون^(١٠) يهزّهما الحنين إلى القوافل، حيث يتمكن الرحالة من تأمل المناظر الخلابة واستعادة الذكريات القديمة.

إلى جانب السرعة، هناك خطر جديد ساهم في تدمير نكهة أدب الرحلة، وهو الارتباط الزمني والدقة في البرنامج. فلم يعد الرحالة يذهب حيث تقوده قدماءه، ولم يعد للصدفة أي معنى - ويبدو أن الرحالة الجدد يتنقلون وأعينهم تراقب ساعاتهم؛ نقرأ مثلاً: « الجمعة ٢١ آذار عند الساعة السادسة صباحاً، انطلقت السيّارتان إلى القدس كما هو مقرّر »^(١١). أو « موعد الغداء هو الساعة العاشرة لأننا سننطلق عند الساعة الحادية عشرة »^(١٢). أضف إلى ذلك تأثير « دليل المسافر » الذي يفرض المعلومات ويحدّ من الحشوية ولذة الاكتشاف.

وقد برزت بعد الحرب العالمية الأولى إشكالات تتعلّق بهدف الرحلة وشخصية الرحالة. فالكثير من الرحالة كانوا متأثرين بالكتابة الصحفية الأكثر انتشاراً في تلك الآونة، وكل منهم كان يكتب مذكراته بقصد نشرها في إحدى المجلّات. لهذا السبب صدرت مجموعة من كتب الرحلات لا قيمة أدبية لها، لأنها بمعظمها تدور حول الرحالة نفسه بدل وصف المشاهد الغريبة. وهذا الخطر الصحفي ارتبط لمدة طويلة بالادّعاء (Snobisme). فعمل ما يبدو، أنه خلال هذه الفترة سافر الكثير من الكتاب، ليس بقصد التمتع بما هو غريب وليس لأنهم يشعرون بهذا الانجذاب نحو الشرق، وإنما لكي يعودوا إلى وطنهم ويحدّثوا عمّا رأوا. وبديهي في هذه الحال أن نرى احتكاك الرحالة بسكان البلاد التي زاروها شبه معدوم، والكثير من التفاصيل تبدو مضافة لإعلاء شأن الكاتب. ولكي نأخذ فكرة عن ذلك، ليس لنا سوى إلقاء نظرة سريعة على كتب الرحالة: ل. بوفو^(١٣)، جاك لوفان دوق^(١٤)، لوران فيبار^(١٥)، موريس هونوريه^(١٦)، جوزف كاسل^(١٧)، آبل مورو^(١٨)... وغيرهم.

ومن جملة المخاطر، أن بعض الرحالة أمّوا الشرق ملء مركز إداري، لذا فهم يحدّثوننا عن الشرق كمسؤولين، مثل الكونت غونتو بيرون الذي كان مساعداً للمفوض السامي، ولم يكن يرى من الشرق سوى الوجه السياسي، وقد لاحظ أن الصحف الفرنسية لا تقوم بمهمة لفت أنظار الفرنسيين إلى المشرق كما يجب،

فأصدر كتابين: تمركز فرنسا في سورية - (١٩٢٢) وعلى طرقات سورية - (١٩٢٨). ونلاحظ في هذين الكتابين رأي فرنسي مندفع لمصالح بلاده أكثر مما هو رأي موضوعي.

ولا يغرب عن بالنا، أن الرحالة الفرنسيين أتوا بعد الحرب إلى بلدان مشرقية يحكمها أبناء بلدهم كلبنان وسورية. فلم يعودوا يحسّون بالتغرب كما في الماضي، بل بالعكس يشعرون وكأنهم في بلدهم. وفي أكثر الأحيان كان يُجرى لهم في سورية ولبنان استقبال رسمي. وكَم من الرحالة حدثونا عن الاحتفالات التي أُقيمت على شرفهم. فهنري بوردو مثلاً استقبله الجنرال غورو (في ٢٥ أيار / مايو ١٩٢٢)، ولا يتوَّع كاتبنا عن ذكر قسم من الخطاب الذي ألقى في الاحتفاء به. فبمثل هذه الظروف، لا يستطيع الرحالة التخلّص من رتبة الاستقبالات الرسمية. وبدل أن يحدثنا بوردو عن اختلاطه بأبناء البلاد، يصف لنا احتفالاً أقيم في باحة السراي حيث تألقت النساء الشرقيات بجلالها وجمالها وثيابها، مقلّدة آخر الأزياء الباريسية. وهذا هو بنظره وجه الشرق الحقيقي. فنظرته إلى الأمور بقيت سطحية وبعيدة عن واقع الشعب ومعاناته. ثم إن هؤلاء الرحالة لم يروا من وجه الشرق سوى جواهر وحلى الطبقة الغنية المتحالفة مع سلطة الانتداب. أما مميّزات هذه البلدان فلم تُذكر إلّا بصورة عابرة. أضف إلى ذلك، أن معظم الرحالة في هذه الفترة قرأوا كتب سابقهم، ومنهم من أطلع بصورة وافية على تاريخ وجغرافية وتقاليد البلدان التي زارها. لذا لاحظنا في بعض كتب الرحلات دراسات علمية عن ديانة قديمة أو عن حقبة تاريخية معيّنة. فبعضهم يبدو وكأنه يتلو عن ظهر قلب كتاباً للتاريخ^(١٩). وبعض الرحالة لم يكن يعرف القيمة الحقيقية لهذا النوع الأدبي، لذا رأبناهم يمزجون بين أدب الرحلة والمغامرة الشخصية. وهذه هي حال هنري شامبلي^(٢٠)، الذي يصف لنا زعيق سيارته التي تجعل الحصى يتطاير على جنبات الطريق، بينما الهواء يصفر من شدة السرعة. وهو لا يصف المشاهد ولا المارة ولا الآثار. ومن سورية ولبنان ومصر، لا يذكر سوى بعض السهرات التي أمضاها في علب الليل. فحين وصوله إلى مصر مثلاً، يدعو أحد الأصدقاء لزيارة الأهرام فيرفض متذرعاً بأنه رآها من شرفة النزل الذي يقيم فيه، وهو يخشى في حال اقترابه منها أن يشعر بالقرف. أما عن السكان فكل ملاحظاته سطحية: «العرب، هم أبناء الصحراء طبعاً. إنهم يرتدون السروال، ويتميزون بشواربهم التي تشبه شوارب علي بابا»^(٢١).

أما رحلات الحجّاج إلى الأراضي المقدسة، فكانت ترتدي عادة طابع زيارة منظّمة. والكتب التي كانت تصدر لم تكن سوى تقارير مليئة بالتقوى والإشادة بالروحانية التي يشعر بها المؤمن، حين تخطأ قدماء الأرض المقدسة. لذا، فمعظم هذه الكتب مشبع بكلام الإيمان أكثر ممّا هو نقل انطباعات موضوعية؛ من بين هؤلاء الكتاب نذكر: غوانت^(٢٢)، غيري^(٢٣)، بابي^(٢٤)، لوغا^(٢٥)، كودال^(٢٦)، نوريسون^(٢٧)، فاليري رادو^(٢٨)... وغيرهم.

ورغم ذلك، لا يجب أن نعتقد بأن أدب الرحلة في هذه الفترة الزمنية قد انعدم كلياً. بالعكس، فإن هناك بعض الرحالة تركوا لنا عن المشرق كتباً رائعة، تفوح بالجمال والموضوعية. من هؤلاء نذكر: جيروم وجان تارو^(٢١)، ألبير فينا^(٢٢)، وموريس بارنو^(٢٣)...



ولكن! ما هي الصورة التي يتركها رحالة تلك الحقبة عن المشرق؟ معظم هؤلاء الرحالة حافظ على صورة الشرق التقليدية، على أنه موطن الحلم والجمال. فالطبيعة استرعت انتباه الجميع، من مناظر الاخضرار، إلى منظر غياب الشمس، إلى الينابيع... إلخ. فبمجرد ذكر اسم الشرق، نرى بعض الرحالة يفرقون في الخيال: «الشرق... كلمة تبرق كلؤلؤة تحت سماء زرقاء وفجر متواصل... إنه أرض قاحلة تزهر بالذكريات والقصص... إنه أرض الفراعنة والخلفاء والمجوس، أرض الحجارة الكريمة والبخور...»^(٢٤).

إننا نقرأ صفحات طويلة، تصف مشهد انبثاق فجر أو غياب شمس أو سحر مدينة تثير الخيال. ولا عجب أن نرى الأخوين تارو اللذين عرفا الشرق عن كثب، ودرسا العادات والتقاليد، واحتكاً بالسكان، نراها يحدّدان الشرق بصورة خيالية: «الشرق هو حلم منسي على ضفة نهر؛ إنه انشودة مسلمة مكوّنة من لا شيء، إلّا من الحب والاسترخاء وزقزقة العصافير في الفسحات المليئة بالاخضرار. إنه بناء لازوردي وخيالي مكوّن من عناصر سريعة العطب، ولا ندري إذا كان يحافظ على توازنه لولا قدرة الخيال»^(٢٥).

والمشرق بقي موطن الديانات بنظر الرحالة. إنه المنطقة التي تزهر بالانقسامات، وكأن الشرقي لا يمكنه العيش إلّا بالنزاع والتشرذم. فالطوائف في الشرق تنقسم وتتعاذى، وكل منها تنغلّق على ذاتها مكوّنة شبه أمة. فالأخوان تارو كرّسا صفحات من كتابها «طريق دمشق» لوصف ما يسمّونه بفسيفساء الديانات. وبعض الرحالة عزا هذا الأمر للخيال الشرقي المنصرف إلى تأمل الكتب السماوية، حيث يرى البعض في كل فترة تفسيرات جديدة، فيقوم المصلحون ويتبعهم كل مفتش عن جديد. وأكثر الرحالة الذين لفت انتباههم هذا المظهر، كان جان ماليا والبير فينا وجيروم وجان تارو. فالأخوان تارو حاولا مراراً تمييز الاختلافات بين الانقسامات المسيحية، حتى وصلا إلى الحائط المسدود: «يا له من تنوّع، يا لها من اختلافات كثيرة الدقة! كيف لي أن أجد الوضوح من خلال التمرّجات العقائدية الدقيقة ومن خلال الطقوس المختلفة! يا إلهي، كم رأيت من البطارقة والمطارنة ورجال الدين! كم من الطقوس المنوعة مثل قوس قزح! لقد ظننت في إحدى اللحظات بأني أمسكت بهذا التلوّن العجيب! أمّا اليوم، فلم تعد لي نفس الثقة وأخاف إن عدت الطوائف أن أخترع هرطقة جديدة»^(٢٦).

وفي هذا الخضمّ الصاخب، يلتقط معظم الرحالة صوراً كاريكاتورية للاحتفالات المختلفة التي كانت تجري في القدس، حيث كان البعض يرتل باللغة اليونانية، فيقابله من ينشد بصوت أعلى باللغة العربية أو القبطية. وكثيراً ما ينتهي الاحتفال بمعركة بين المصلّين تُلزم تدخّل قوات الانتداب البريطاني^(٣٥).

ويلاحظ الرحالة الانقسامات نفسها عند المسلمين، إذ يخصّص الأخوان تارو فصلاً كاملاً «أله سورية»، حيث يغوصان في كل التفاصيل المتعلقة بالمذاهب الإسلامية، ويخلصان إلى القول: «ليس أسوأ من أن ترى أمامك الأفكار العظيمة مهشمة. أحسن بأني أضيع في مناهات من الديانات المتناثرة، إذ أرى أمامي كُوماً من الأفكار تثنّ وتنحط وتتشوه»^(٣٦).



والمشرق يبدو بلد التاريخ والأساطير. فلا يسعّ الرحالة أمام الآثار القديمة إلّا العود إلى الوراء، ليزكروا بالحضارات التي تعاقبت على المنطقة. ومنهم من يخصص فصلاً كاملاً للتكلّم على شعب. ألبير فينا مثلاً، يتكلّم مطوّلاً في كتابه «في بلد التوراة» عن تاريخ الفينيقيين؛ بينما كاميرير في كتابه «رحلة في السيارة عبر بترا والأردن والصحراء»، يكلمنا عن تاريخ مملكة بترا بالتواريخ والأسماء. ومن التاريخ، ينتقل البعض إلى الأساطير: أسطورة أدونيس، أسطورة قدموس، أسطورة برج بابل... إلخ.

ولكن رغم أهمية التاريخ، يبدو أن الرحالة في فترة ما بعد الحرب اهتموا بالحاضر وأحداثه. فكلمهم تأثروا بالأحداث، وحاولوا تحليل مواقف شعوب الشرق. وهكذا، تكلم معظمهم عن التمرّق الجغرافي، وعن عمل الانتداب، والثورة الدرزية، والمخطط اليهودي للاستقرار في فلسطين، والصراع الفرنسي الانكليزي للنفوذ في الشرق. وقد استرعى التمرّق المفروض على المنطقة انتباه رينه فانلاند، الذي كتب رحلة عنوانها «التمرّق الشرقي»، وكذلك بيار لامازيار الذي كتب «أثناء ذهابي إلى سورية». ومن خلال هذين الكتابين، يبدو الشرق أرض الجراح بسبب بعض التوجهات السياسية الأنانية، التي وجد لها الغربيون غطاء تحت مبدأ حماية الأقليات. فبنظر لامازيار، كان الهدف من إنشاء الدول أزيداد عدد الحاكمين والمندوبين والموظفين والطامعين بالمال على حساب الميزانية العامة. وهو يذهب أبعد من ذلك، فيتهم الجزائر غورو بأنه جعل من سورية مقدونية أخرى، إذ قطع أوصالها بحدود اعتباطية. أمّا فانلاند، فإنّه يتساءل في نهاية كتابه، بأسلوب طغى عليه الحزن والمرارة: «ماذا سيحصل لهذه الدول التي رُسمت بشحطة قلم على الخريطة، وهذه الحدود الوهمية الاعتباطية التي جاءت تشطر تجمعاً موحّداً إلى اثنين، أو تسد نهراً، أو تقطع طرقاً تجارية، أو تعطي مرافئ، إلى بلدان ليس لها ما تصدّره، بينما تحرم بلدان خصبة من هذه المنافذ المهمة؟»^(٣٧). وينتهي فانلاند رحلته، الغنية بالذكريات، بهذه الملاحظة: «أما الآن، وتحت وطأة رحلتي الصاخبة إلى الشرق الأوسط المضطرب والتمرّق، فإن هناك

كلمة واحدة تهيمن على تفكيري، تلاحقني وتصفني على وقع دواليب القطار الذي ينقلني: تمزّق! تمزّق! (٣٨).

وهناك ناحية أخرى استرعت انتباه الرحّالة، وهي عمل الانتداب الفرنسي. عن هذا الموضوع، تكلم مفصلاً **بارنو، لامازيار، وغونتو بيرون**. ومعظم الرحّالة أشادوا بالعمل التنظيمي والعمرائي الذي يقوم به الفرنسيون؛ وقد رفضوا أن يروا أي وجه سيء للانتداب، بينما نلاحظ أن عدداً قليلاً كان له الجرأة على انتقاد الوجود الفرنسي. ويمكننا أن نورد هنا رأيين متناقضين، يعطينا صورة واضحة عن هذا الموضوع. **فكلود دارفن** مثلاً، ينهي رحلته بمديح للفرنسيين: «لقد شتدت فرنسا، وزرعت واعتنت وثقت في كل مكان من الشرق... وغداً، حين ينسى الناس الطرقات والجسور والمستشفيات والمدارس، فإن عشب الحقول عندما ينبت ويزهر في كل عام، سيصبح في الهواء ممجّداً اسم فرنسا» (٣٩). بينما **بيار لامازيار**، ينهي رحلته متشائماً: «لست سنوات خلت، نتابع سياسة سراب وأوهام. إننا نتوه في سورية ولبنان، مفتشين عن حقيقة هاربة قادتنا على طرقات وعرة، حيث هشمتنا الصخور والأشواك، ولم نلاقِ إلاّ الخيبات والمآسي. كل شيء يعطينا البرهان بأننا ضائعون، فلنتراجع ونغيّر أساليبنا. وإذا كنا لا نستطيع تغيير مفاهيمنا وأساليبنا فالأفضل ألاّ نذهب أبعد من ذلك، ولنعدّ إلى بلادنا...» (٤٠).



والثورة الدرزية ضد الفرنسيين عام (١٩٢٥)، لاقت بدورها صدًى كبيراً في كتب الرحّالة، الذين لم يكن بإمكانهم تجاهل حدثٍ يمثل هذه الأهمية، خاصة وأن الآلاف من الجنود الفرنسيين لاقوا مصرعهم في تلك الثورة. لهذه الغاية، زار الكابيتن **جورج كارييه الشرق**، وكتب رحلة بعنوان «في جبل الدروز». و**هنري بوردو وبيار لامازيار** بدورهما يعالجان هذه القضية، إذ إن الشرق الأوسط أصبح مجدّداً رمزاً للتضحية الفرنسية. إنها أرض أريقَت فيها الدماء الفرنسية، من أجل عزة وعنفوان فرنسا.

ويلحظ الرحّالة حدثاً مهماً، سوف يكون له مضاعفات كثيرة في المشرق، وهو محاولات زرع وطن قومي يهودي في فلسطين. يعرض **فانلاند** المشكلة من خلال لقاءات متعددة مع السكان، ويذكر رأياً متطرفاً لأحد الضباط الأنكليزي: «فلسطين هي وطننا، وفيها نخسّ بالارتياح. أهو عامل العرق، أم الدين، أم العاطفة، الذي يعطينا هذا الأحساس؟ بدون شك، إنها كل هذه العوامل مجتمعة. يمكننا بالطبع أن نكون يهوداً في أيّ بلد من العالم، إنّا اليهودية لا تزدهر إلاّ في أرضٍ منبتها ومجدها في فلسطين» (٤١).

أمّا **بايني**، فيكلمنا عن الحركة الصهيونية من الناحية التاريخية، ويتساءل عن تأثيرها في مستقبل الشرق. فينا

يحدّد دور ومسؤولية الانكليز من خلال وعد بلفور. ماكس دو سان فيليكس يذكر الاضطرابات التي قامت عام (١٩٢٩)، بين اليهود والعرب، ويورد رأياً عربياً منطوقاً: «إنّي أقول لكم بأن هذا الشعب لا يعرف الانصهار في أي مجتمع... والويل لنا مسيحيين ومسلمين إذا تواصلت الهجرة اليهودية، وأصبح هؤلاء غير المرغوب فيهم التفوّق العددي» (٤٢).

من خلال هذه الرحلات، يمكننا استقراء المستقبل، والتقدير بأن هذه المشكلة سوف تكون مصدر قلق واضطرابات في الشرق. وهناك موضوعات كثيرة نستشفها من كتب الرحلات في هذه الفترة، وتعطينا صورة واضحة عن تقلّبات الأحداث في الشرق: صراع النفوذ الفرنسي - البريطاني، فشل المؤتمر الاسلامي في فلسطين لانتخاب خليفة للمسلمين، تأثير لورانس في بث فكرة المملكة العربية، المطالبة المستمرة بالاستقلال... إلخ. وعلى وجه العموم، فإن معرفة الشرق تبدو أكثر شمولاً وأكثر عمقاً.



ولكن، هل توصل أدب الرحلة إلى استكشاف نفسية الشرقي؟ هل بقي الشرقي لغزاً لا تحل عقده؟ وما هي الصورة التي يعطيها الرحالة عنه؟

من أولى مميّزات نفسية الشرقي، كما تبدو من خلال أدب الرحلة في هذه الفترة، التعصّب الديني والتعلّق بالروحانيات، وهي نقطة ضعف يستغلها رجال السياسة على أحسن وجه لتحقيق مآربهم. فمهما كانت قناعات المسؤولين السياسيين، فإنهم لا يسقطون من حساباتهم واهتماماتهم هذا الشعور الديني الموجود في أعماق كل شرقي، ويؤثر على تصرفاته وردّات فعله: «لقد شعرت أبناً ذهبت بوجود قوة طائفية كامنة متسترة حيناً وبارزة حيناً آخر، ولكنها تنتظر أية مناسبة لتصبح فاعلة» (٤٣).

ويحاول روبرت دوتراز في كتابه «التغرّب الشرقي» أن يعطي تحليلاً سيكولوجياً لهذه الظاهرة، فيرى أن التعصّب ليس إلّا همجية جسدية، أو بقايا تشنّجات عصبية تعود إلى حروب الجهاد عند العرب، أو أنه فورة غضب، كالتي تهيج حيواناً ضد حيوان آخر: «هذا الشعب يبدو في أغلب الأحيان مرحاً وباسماً، ولكنك لا تعلم في أية لحظة ينقلب فيها ويصبح مجرماً» (٤٤). وفي هذا المجال، ينوّه الرحالة بأن الشرقيين يمزجون بصورة مستمرة بين ما هو ديني وما هو سياسي.

والتعصّب الطائفي ينقلب أحياناً - ولأجل أغراض سياسية يغذيها النافذون - إلى تعصّب وطني. وما أن الشعور الوطني لم يتبلور فعلياً في ذهن الشرقيين، فقد انقلب إلى شعور بالعداء للآخرين.

وهكذا، فالرحالة يقدمون لنا، على العموم، صورة قائمة عن النفسية الشرقية؛ فالشرقي إنسان متعصّب،

يكره الآخرين، يتعلّق بالمظاهر، يدعو إلى التطوّر دون أن يكون مقتنعا بذلك. وفي هذا المجال، يرسم الأخوان تارو صورة قاسية عن الانسان الشرقي. فقد التقيا موظفاً فرنسياً أمضى اثنتين وعشرين سنة في الشرق، وهو يزعم العودة إلى فرنسا. فهذا الموظف يصف لهما العربي، بعد طول خبرة، كما يلي: «العربي هو إنسان الخيال، ولا علاقة له بما يسمّى المنطق. إنه لا يعرف وضع حدود بين المعقول واللامعقول، وطيلة وجوده لم يعرف أن يؤسس أو ينظّم دولة، لأن فكرة المصلحة العامة بعيدة عن تصوّره. وإذا رأيت العربي اليوم متحمساً للأفكار البرلمانية، فذلك لأن الديمقراطية تتلاءم مع عيوبه الثلاثة الأساسية: الإدعاء الجنوني، الرغبة في الثروة المتواصلة، الميل الطبيعي إلى الأعمال المعيبة. فالموظفون والوزراء لا يفكرون إلّا بالغنى السريع على حساب الأموال العامة. أضف إلى ذلك، أن العربي هو أفضل من يمثّل نكران الجميل. كان بمقدوري، يضيف الموظف، أن أبقى هنا شهوراً أو سنوات، إنّما فضّلت الرحيل بعد أن أتخمني القرف»^(٤٥).

هذه المساوىء التي يعددها الأخوان تارو، بشكل قاسٍ، وردت في كتب أندريه برومو، موريس بارنو، رينه فانلاندد... وغيرهم. فصعوبة تنظيم الدولة ترجع إلى الأنانية الشرقية، إذ يصعب على الفرد أن يشعر بوجود غيره. لذا، فالشرقي لا يعمل من أجل المصلحة العامة: «تصب الحياة العامة في النهاية بمسائل شخصية. وبما أنه ليس للشرقي أي تخطيط مستقبلي، فهو يفرق بالصغائر اليومية. فالمشاحنات اليومية ليست وليدة اختلاف فكري، وإنّما اختلاف أشخاص. وحين يتوصّل أحدهم للسلطة يتصرّف كسابقه. وهكذا، فالأحزاب ليست سوى تجمعات تتحلّق حول زعيم يؤمن لها المراكز»^(٤٦).

ويشدّد دوتراز على التناقض الكامن في فكر الشرقي، الذي لا يملك القدرة التحليلية وليست له الثقة الكاملة بنفسه؛ لذا نراه يشعر بالحاجة الدائمة لدعم من الخارج. ويروي بارنو عن لسان الجنرال فيغان قوله إلى مجموعة من الوجهاء العرب: «إن أنظاركم تتحوّل دائماً نحو الخارج، وكأن الخلاص يمكن أن يأتيكم من بعيد؛ فمِن الأفضل أن تحوّلوا أنظاركم إلى الداخل»^(٤٧).

والشرقي هو أيضاً قدرّي، وله ثقة عمياء بالقضاء والقدر. فأمام أية مصيبة أو مشكلة يجابهك بكلمة «مكتوب».

أضف إلى ذلك أن الشرقي يؤلّ القوة والسلطة، وهو يبذل فناً خبيثاً لكي يكون له منزلة عند عظيمي الشأن. يحدثنا لامازيار عن رحلته إلى الشرق. من مرسيليا حيث كان على متن الباخرة المفوض السامي الجديد هنري دو جوفونيل. ويُفاجأ كاتبنا بوجود العديد من رجال الأعمال والمحامين والمتزلفين، الذين أتوا من سورية ولبنان حين علموا بتعيين المفوض الجديد، فاستعلموا عن موعد سفره وأبحروا معه، لأن تعيين موظف بهذه الأهمية لا يشكّل فقط حدثاً سياسياً، وإنّما مصلحة تجارية ومالية لمن يُحسن استغلالها. وهكذا، فالذكاء يقضي

بملاقاة المسؤول، وليس انتظار مجيئه، حتى يتسنى التعرف إليه عن كثب، والتقرب إليه وكسب مودته قبل سائر المنافسين. وبنوه لامازيار يحدث له دلالة أكبر، وهو استقبال المفوض الجديد الحار، حيث يورد أن آلافاً من الناس تجمّعوا يهتفون بجيائه وحياة فرنسا. وحين يعبر الكاتب عن فرحته واعتزازه لأحد الموظفين الفرنسيين العاملين في بيروت، يُخرج هذا الأخير من أحد الملفات صحيفة تعود إلى العام (١٩١٥)، حيث يقرأ له وصفاً للاستقبال الحار، الذي لقيه جمال باشا أثناء زيارته للبنان وسورية، إذ تجمع الآلاف من الناس للترحيب به، وزيّنوا الشوارع بالزهور وأقواس النصر. وبعد مقارنة الحداث، يستخلص دوتواز إحدى أهم مميزات النفسية الشرقية، الخبث والانحناء أمام القوة: «هنا، يقول الموظف الفرنسي، لا يوجد لا حقائق ولا أكاذيب، وإنما صيغ مؤقتة. لذا، لا يجب الوثوق بالمظاهر، ولا يجب التسرع بالحكم على الأحداث والناس الذين لهم في غالب الأمر وجهان»^(٤٨).

وأخيراً، يلحظ الرحالة تعلّق الشرقي بالمال ومظهر الغنى. فالريح السريع - ومهما كانت الأساليب ملتوية - هو فن شرقي. فجملة هذه الملاحظات عن النفسية الشرقية، قادت بعض الرحالة المتعصبين إلى إعطاء أحكام قاسية ومشوّهة عن الحضارة العربية والإسلامية. يقول روبر دوتواز: «الإسلام، هو اليوم كنعج جفّ ماؤه. فماذا باستطاعة المسلمين أن يلقنونا؟ فإذا كنا مرضى، فهم في حالة نزاع... إنها حضارة ساقطة، وديانتهما ولغتها عقيمتان. فالأمثلة الوحيدة التي نأخذها من المسلمين هو أن انخطاطهم يجب أن يعلمنا كيف نتجنّب الوصول إلى هذا الدرك»^(٤٩).



وفي النهاية، نتساءل: هل الشرقي هو فعلاً هذا الانسان المحشو بالعقد، كما صورته أدب الرحلة في مرحلة ما بين الحربين؟ في الحقيقة، إنّ الرحالة في هذه الحقبة قلّموا أبرزوا الوجه الإيجابي. فالليونة بنظرهم هي خبث، والإيمان هو تعصّب، والإباء هو عجرفة، والشعور الوطني هو حقد على الآخرين. فرحلة هذه الفترة كانوا قاسين في أحكامهم، ولم يتقرّبوا من المجتمع الشرقي ويحبّوه، ليتمكنوا من سبر أغواره. وحده، رولان دور جولام في رحلته «قافلة من دون جبال»، دافع عن هذا المجتمع، وحاول إثبات أن هذه العيوب ليست خاصة النفسية الشرقية، وإنما هي عيوب إنسانية نجدها في كل بيئة: «إننا نأخذ عليهم تعصّبهم الذم ودياناتهم المتعارضة، فهل انقساماتنا السياسية هي أفضل حالاً؟ ونتكلّم عن جهم للمال، وكأنّ عبادتنا للذهب هي أرفع شأنًا. وأحياناً نسترسل بالكلام عن خبثهم وكبريائهم، وكأنها عيوب لا توجد إلّا في الشرق. وقد قيل إنهم جبناء، فمن هذا الموضوع إسألوا الذين بقوا أحياء من جنودنا الذين حاولوا قمع الثورة الدرزية...»^(٥٠).

وهكذا، فأصابع الاتهام موجهة إلى العدد الأكبر من رحلة ما بين الحربين. فالرحلة الحقيقي كما عرّفه

الأدب ليس الذي يجلس في الطائرة أو في السيارة، ويصف لنا ما تراه عيناه من مشاهد. والرحالة ليس الذي يأتي إلى منطقة معينة ورأسه محشو بالأفكار المسبقة. فلنكني نفهم شعباً، يجب أن نعيش معه، ونحتك بكل طبقاته، ونستمع إلى الناس في همومهم ومشاكلهم لكي يتسنى لنا فهم ردات الفعل عندهم. في هذه الحال، يصبح الرحالة أخاً لكل الشعوب، يعرف كيف يطيب الجراح، ويهدئ الأحقاد ويكون رابطاً بين شعوب ذات حضارات مختلفة.

هذه الثغرة لفهم الشرق، سيسدها حسن الحظ، وإن جزئياً، روائي هذه الحقبة، الذين اختاروا لقصصهم أبطالاً وأشخاصاً شرقيين فأثبتوا فهمهم واستيعابهم للنفسية الشرقية بكل أبعادها، نذكر منهم: فرانسوا بونجان، مرم هاري، بيار بنوا... وغيرهم.

الخواري.

- Xavier MARMIER: Voyageurs nouveaux, Paris, Arthus Bertrand 1851; (P.369). (١)
Edmond ABOUT: Le Fellah, Paris Hachette 1960. (٢)
Maxime Guffroy: Six mois au Liban, Marseille 1892. (٣)
Georges MONTBARD: En Egypte, Paris 1982. (٤)
Lowis BERTRAND: Le mirage oriental, Paris, Perrin 1910, (P.60). (٥)
Ibid (P.28). (٦)
Cf. Henry BORDEAUX: Dans la montagne des Druzes, Paris, Plon 1926; (P.79). (٧)
Henry BORDEAUX: Histoire d'une vie, T. VIII; Paris, Plon 1962, (P.159). (٨)
René VANLANDE: Le Chambardement oriental, Paris, Peyronnet 1932; (P.238). (٩)
Paul NOURISSON: Visions de Pèlerinage, Paris, Le coffre 1928; (P.8). (١٠)
A. KAMMERER: Pétra la Transjordanie et l'Arabie pétrée en automobile, Paris, 1926; (P.8). (١١)
F. CUDEL: Souvenirs de Terre Sainte, d'Egypte et de Syrie, Paris 1924; (P.38). (١٢)
L.H. Bouzou: Sur les Chemins du Proche-Orient, Paris, Le thielles 1936. (١٣)
Jacques LE-VAN-DUC: Voyage en Orient, Quinhon 1924. (١٤)
R. LAURENT-VIBERT: l'Orient en Mai 1923, Lyon, Audin, 1923. (١٥)
Maurice HONORE: Vers Bagdad, Paris, Pierre Roger 1929. (١٦)
Joseph KESSEL: En Syrie Paris, Kra 1927. (١٧)
Abel MOREAU: Sur les routes de Syrie; Paris, Vulliez 1924. (١٨)
CF.. - GABRIEL HANPTAUX: Regards sur l'égypte et la Palestine, Paris, Plon 1929. (١٩)
- A. KAMMERER Pétra, la Transjordanie et l'Arabie pétrée en automobile, Paris 1926.

- Charles BEAUGE: *Egypte et Syrie, Paysages, ruines et Souvenirs*, Alençon 1930.
- Henry CHAMPLY: *Le Pèlerin de Vénus, croisière païenne en Orient*; Paris, Charpentier 1930. (20)
- Henry CHAMPLY: op. cit., (P.151). (21)
- Mgr. GRETE: *Une mission dans le Levant*, Tours 1926. (22)
- Abbé Charles GUERY: *Quelques semaines en Orient*, Evreux 1922. (23)
- L. de PAÏNI: *En Palestine*, Paris-éditions du Loup 1930. (24)
- Georges LAUGA: *La Terre qui parle*, Paris-éditions de la Cause 1929. (25)
- F. CUDEL: *Souvenirs et impressions de Terre Sainte, d'Egypte et de Syrie*, Paris-imprimerie de la Renaissance 1924. (26)
- Paul NOURISSON: *Visions de Pèlerinage* Paris, Le coffre 1928. (27)
- Robert VALLERY-RADOT: *La Terre de Vision*; Paris, Perrin 1924. (28)
- Gérôme et Jean THARAUD: --*Le Chemin de Damas* Paris, Plon 1923. (29)
- *Alerte en Syrie*; Paris, Plon 1937.
- Albert FINET: *Au Pays de la Bible*, Paris, SCEL 1932. (30)
- Maurice PERNOT: *l'Inquiétude de l'Orient*, (2 tomes), Paris Hachette 1927. (31)
- Marie-Thérèse GADALA: *Egypte, Palestine, du Sphinx à la croix*; Paris, Arthaud 1932. (P.9). (32)
- J.J. THARAUD: *Le Chemin de Damas*; Paris, Plon 1923; (P.106). (33)
- J.J. THARAUD: *Le Chemin de Damas..* (P.72). (34)
- CF: -- Albert FINET: *Au Pays de la Bible*; (PP.65-66). (35)
- Roland DORGELES: *La Caravane sans chameaux* (PP.126-132).
- J.J. THARAUD: *Le chemin de Damas...* (P.98). (36)
- René VANLANDE: *Le chambardement oriental..* (P.287). (37)
- Ibid. (P.289). (38)
- Claude DERVENN: *Sur les Routes du Levant..* (P.281). (39)
- Pierre LAMAZIERE: *Partant Pour la Syrie*, (P.231). (40)
- René VANLANDE: op. cit., (P.203). (41)
- Max de SAINT-FELIX: op. cit., (P.158). (42)
- Maurice PERNOT: *L'inquiétude de l'Orient- t. II.*, Paris, Hachette 1927; (P.215). (43)
- Robert de TRAZ: *le dépaysement Oriental*, Paris, Grasset 1926; (P.82). (44)
- J.J. THARAUD: *Alerte en Syrie..* (RP.168-169). (45)
- Robert de TRAZ: op. cit., (P.90). (46)
- Maurice PERNOT: op. c.t., t.2; (P.166). (47)
- Pierre LA MAZIERE: op. cit., (P.69). (48)
- Robert DETRAZ: op. cit., (P.87). (49)
- Roland DORGELES: *La caravane sans chameaux..* (P.297). (50)

لائحة بأسماء الرحالة والكتب التي
أصدروها ما بين حربي ١٩١٤ و ١٩٣٩

- Beaugé, Charles: Egypte et Syrie, paysages, ruines et souvenirs. Alençon 1930.
- Bordeaux, Henry: - Dans la montagne des Druzes. Paris, Plon 1926.
 - Voyageurs d'Orient. Paris, Plon 1926.
 - L'histoire d'une vie (t. VIII) Paris, Plon 1962.
- Bouzou, L.H.: Sur les chemins du Proche-Orient. Paris, Le thielieux 1936.
- Carbillet (Capitaine): Au djebel druse. Paris, Argo 1929.
- Catroux (Général): Deux missions au Moyen-Orient (1919- 1922) Paris, Plon 1958.
- Champly, Henry: Le Pelerin de Vénus, croisière païenne en Orient. Paris, Charpentier 1930.
- Cudel, F.: Souvenirs et impressions de Terre Sainte, d'Egypte et de Syrie. Paris, imprimerie de la Renaissance 1924.
- Dervenn, Claude: Sur les routes du Levant. Hanoï 1941.
- Dorgelès, Roland: La caravane sans chameaux. Paris, Albin Michel 1928.
- Finet, Albert: Au pays de la Bible. Paris S.C.E.L. 1932.
- Gadala, Marie-Thérèse: Egypte, Palestine, du Sphinx à la Croix. Paris, Arthaud 1932.
- Geiger, André: -Syrie et Liban. Grenoble, Arthaud 1932.
 - En Syrie et au Liban Paris, Arthaud 1942.
- Gontaut-Biron (Comte R. de):
 - Sur les routes de Syrie. Paris, Plon 1928.
 - Comment la France s'est installée en Syrie. Paris, Plon 1922.
- Grente (Mgr.): Une mission dans le Levant. Tours 1926.
- Guery, Abbé Charles: Quelques semaines en Orient. Evreux 1922.
- Hanotiaux, Gabriel: Regards sur l'Egypte et la Palestine. Paris, Plon 1929.
- Harry, Myriam: Terre d'Adonis. Paris, Flammarion 1930.
- Honoré, Maurice: Vers Bagdad. Paris, Pierre Roger 1929.
- Kammerer, A.: Pétra, la Transjordanie et l'Arabie pétrée en automobile. Paris, Société de Géographie 1926.
- Kessel, Joseph: En Syrie. Paris, Kra 1927.
- Lauga, Georges: La terre qui parle. Paris, Editions de la Cause 1929.
- Laurent-Vibert, R.: L'Orient en Mai 1923. Lyon, Audin 1923.
- Le-Van-Duc, Jacques: Voyage en Orient. Quinhon 1924.
- Mauclair, Camille: De Jérusalem à Istambul. Paris, Grasset 1939.
- Mazière, Pierre la: Partant pour la Syrie. Paris, Baudinière 1926.
- Melia, Jean: Chez les Chrétiens d'Orient. Paris, Fasquelle 1929.

-
- **Nourisson, Paul:** Visions de pèlerinage. Paris, Le Coffre 1928.
 - **Païni, L. de:** En Palestine. Paris, Editions du Loup 1930.
 - **Pernot, Maurice:** L'inquiétude de l'Orient (2 tomes). Paris, Hachette 1927.
 - **Pichon, Jean:** Le partage du Proche-Orient. Paris, Peyronnet 1938.
 - **Pouleau, Alice:** A Damas sous les bombes. Paris, Yvelot 1928.
 - **Saint-Félix, Max de:** A travers l'Orient. Paris, Figuière 1931.
 - **Tharaud, Jérôme et Jean:**
 - Le chemin de Damas. Paris, Plon 1923.
 - Alerte en Syrie. Paris, Plon 1937.
 - **Traz, Robert de:** Le dépaysement oriental. Paris, Grasset 1926.
 - **Vallery-Radot, Robert:** La terre de vision. Paris, Perrin 1924.
 - **Vanlande, René:** Le chambardement oriental. Paris, Peyronnet 1932.